إغراء النجاح في المحكمة!

مرزوق الحلبي*

استطاعت الديمقراطية الإسرائيلية على طريقتها إقامة توازن نسبي بين وضع قانوني يقوم على التمديد الدوري لـ "حالة الطوارئ"، وبين ضمان شبه دستوري لمبدأ حرية التعبير. نقول هذا وفي الخلفية تنامٍ في تشريعات مناهضة للديمقراطية تعكس قوة دفع يمينية الفكر والتوجهات تؤسس لوضع قانوني (وولتر بنيامين) يضيّق على الحريات العامة لا سيما حرية التعبير والانتظام. وندّعي أن محدثي قوة الدفع هذه الممسكين بدفة السيادة معنيون باندفاعتهم الراهنة إلى ترسيخ "حالة الطوارئ" كحالة دائمة وكـ "وضع طبيعي" نهائي، إذا صحّ التعبير. وهو وضع تتيح السلطة فيه لنفسها إعادة توزيع الحريات بين "صديق" و "عدو" (كارل شميدت).

هناك إغراء شديد في الخروج قضائيا وسياسيا ضد الحريات الممنوحة لقوى اليمين المناهضة للديمقراطية التي تستثمرها لإشاعة خطاب الكراهية، الحاضر بكثافة أصلا. وهو إغراء يكمن لنا في ثلاثة ادعاءات: ضرورة الدفاع عن أنفسنا، ضرورة اعتماد التوجّه المبدئي نحو حرية التعبير وإمكانية النجاح قضائيا. لكن هذا النجاح بالذات قد يتحول إلى مصيدة عندما تتحوّل السابقة ضد اليمين الراديكالي المحسوب على "الأصدقاء" إلى إجراء مشابه ضد الأقلية العربية المحسوبة على "الأعداء" وفق أجواء "حالة الطوارئ" المتنامية! وفيما لا يعني فقدان اليمين لحرية التعبير جزئيا أي شيء لأنه ممسك بالسيادة التي تمنحه قدرات هائلة على الفعل، فإن فقدان الأقلية العربية لحرية التعبير، ولو جزئيا، يعني فقدان جزء هام من قدرتها على الفعل.

لن يكون من الحكمة الخروج ضد حرية التعبير في إسرائيل بصيغتها الراهنة المرشحة للتضاؤل لأن أي حدّ لهذه الحرية سيعمل في نهاية الأمر، ضد أكثر المجموعات حاجة إليها، وهي هنا المجموعة الأضعف. هذا في حين أننا كمواطنين عرب لا نعاني في الراهن من غياب الحريات بقدر ما نعاني من وطأة السياسات الواقعة علينا والتي يُمكن تلخيصها بالتوزيع غير العادل للموارد بما فيها الرمزية والسياسية.

* الكاتب هو محامٍ, صحفي وناشط.